

الحدائثة في الأدب والنقد عند الجاحظ

□ د. محمد رضا خضري *

المقدمة:

أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الكنانى الليثى الملقب بالجاحظ لبروز عينيه والمتوفى سنة ٢٥٥هـ في البصرة^(١)، كان إماماً من أئمة الكتاب وزعيماً من زعماء النثر وبإمكاننا أن نعدّه نقطة تحول، بل نقطة انطلاق في تأريخه، إنه كان عارفاً بمعارف عصره لا يكاد يفوته شيء منها، ويقال إنه لم يقع بيده كتاب قط، إلا قرأه مهما كان موضوعه،

حتى قال رجل لأبي العيّن: ليت شعري أي شيء كان الجاحظ يُحسن؟ فقال: ليت شعري وأي شيء كان لا يحسن؟^(٢)

إنه كان أستاذ عصره، بل كان صورة صادقة لزمانه، إذ نشأ في زمن الرشيد ذلك الخليفة العظيم الذي كان يجلس العلماء ويُقرّبهم، ويجالس الشعراء ويجود عليهم، ونبغ في عهد المأمون أعلم الخلفاء وأشدهم انتصاراً للحرية الفكرية، وأكثرهم تقديراً للعلم وأهله وعائش اثني عشر خليفة،

وجاءت مؤلفاته حاملة كل الآراء والأفكار التي سادت عصر الازدهار العربي العباسي للحضارة الإسلامية ومثل أدبه عصره أدق تمثيل، وصوره أحسن تصوير، وما أظن أديباً من العرب أدرك الغاية من الأدب، كما أدركها الجاحظ حسب تعبير الأستاذ خليل مردم بك في كتابه الجاحظ.^(٣)

❖ أستاذ بجامعة الشهيد بهشتي الإيرانية.

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت الحموي، ج ١٦، ص ٧٥ - ٧٦.

(٢) جمع الجواهر في الملح والنوادر، أبو إسحاق الحصري، ص ٢٠٤.

(٣) الجاحظ، خليل مردم بك ص ٥٨.

- التعريف بالحداثة :

كلمة الحداثة لغوياً: تعني أول الأمر وابتدائه، واصطلاحاً: هي إتيان بشيء لم يؤت بمثله من قبل، والتحرُّر من إيسار المحاكاة والنقل والاقْتباس واجترار القديم^(١). وفي الآداب الأوروبية هي ما يطلق عليه لفظة المودرنزم modernism، على حين أن ما قصدناه بالحداثة في الأدب العربي هو ما يوازي لفظة modernity بالإنجليزية.

هناك تلابس في استخدام كلمة الحداثة، والسبب في ذلك يرجع إلى تواتر الاشتراك عند استخدامها لفظاً ومعنى، ولم يتم استخدامها كمصطلح نقدي إلا في السنوات الأخيرة من القرن الحالي وتحديدًا في بداية الثمانينات، ومن الملاحظ أنها اكتسبت وحدها كل الحالات التي كانت تحملها كلمة «التجديد».

ولسنا بعيدين عن الصواب إذا قلنا إن معنى كل من كلمتي «تجديد» و «حداثة» متداخل بدرجة تكاد تكون ترادفاً، وقد حاول بعض الباحثين المحدثين تعليل وتفسير نوع من الفرق بين التجديد والاستحداث، فالدكتور البهيتي مثلاً يرى أن الخصائص الفنية فيه لم تكن مستحدثة استحداثاً كاملاً، وإنما كانت توسعاً في استخدام القديم، وتحديدًا لوجوهه حتى يلائم الحياة الجديدة، ومحاولة إلى دفعه للاستجابة للتجدد الذي طرأ على حياة الأمة بمضي العصور، فهو أقرب إلى أن يكون «تجديداً للقديم» من أن يكون «استحداثاً لجديد»^(٢).

فينبغي القول: إن التجديد هو من مقومات وجود الفن، والفن الذي تنعدم فيه درجة من درجات التجديد لا يستحق أن يسمى فناً. وحسب رأي المرزباني في موشحه، الخصوصية الأساسية لكبار شعراء العرب أنهم ابتكروا أشياء سبقوا بها غيرهم، وهو يقول: أخبرني يوسف بن يحيى بن علي المنجم، عن أبيه، قال: حدثني علي بن مهدي، قال: حدثني أبو حاتم السجستاني، قال: قلت للأصمعي: أباشار أشعر أم مروان؟ قال: فقال: بشار أشعرهما، قلت: وكيف ذاك؟ قال: لأن مروان سلك طريقاً أكثر سلاكه فلم يلحق بمن تقدمه، وأن بشاراً سلك طريقاً لم يسلكه أحد فانفرد به وأحسن فيه. وهو أكثر فنون شعر، وأقوى على التصرف، وأغزر وأكثر بديعاً، ومروان أخذ بمسالك الأوائل^(٣).

وإذا أردنا معالجة تاريخ التجديد، فسوف نجد قديم العهد منذ العهد اليوناني، فنحن نعد «هوميروس» في شعره شاعراً مجدداً؛ لأن شعره يسري فيه الرواء. وعده أرسطو من الفحول ولم يعد معاصره

(١) المعجم الأدبي، الدكتور جبور عبدالنور، ص ٩٢.

(٢) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، الدكتور نجيب البهيتي، ص «و».

(٣) الموشح، المرزباني، تحقيق علي محمد الجاوي، ص ٣٩١ و ٣٩٢.

«امبوكليس» شاعراً برغم شعره الكثير، لأن شعره فقد الرواء الغني والموسيقى العذبة عندما قصره على القضايا العلمية، مع أنه نظم شعراً واضحاً جيد الصناعة. وما لا شك فيه أن التجديد حاجة ملحة لكل مجتمع للحفاظ على تطوره الحضاري، كما لا شك في أن السكون والركود سيؤديان إلى السقوط والاندثار.

لقد شهد المجتمع العربي الإسلامي معركة عنيفة بين المحدثين والقدماء، وكانت دلالات هذه المعركة وأبعادها أوسع وأشمل في حالة الأدب العربي منها في غيره من الآداب. ويعتبر ابن قتيبة من أوائل النقاد العرب القدامى الذين خاضوا في هذه المعركة، ولا سيما في مقدمة كتاب الشعر والشعراء، حيث اتضح ميله نحو الانتصار للموضوعية في الخصومة بين القديم والمحدث، ففتح الباب لقبول المحدث، لعدّه قيمة أسلوبية، وليس معياراً زمنياً. فقد حاول أن يتخذ موقفاً حيادياً تجاه الطرفين، ويبدو أنه أفلح في ذلك «وليس للمحدث أن يتبع المتقدم في استعمال وحشي الكلام الذي يكثر في كثير من أبنية سيبويه»^(١). ومن النقاد الذين خاضوا هذه المعركة واستعملوا مصطلحات، «حديث» و«حدث» و«محدثون»؛ الجاحظ الذي يُعدُّ أول من أنصف المحدثين^(٢). قال في الحيوان عن شعر أبي نواس: «وإن تأملت شعره فضلته، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية، أو ترى أن أهل البدو أبداً أشعر، وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء. فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل»^(٣). وهناك عبارة حاسمة للجاحظ أوردها في كتابه الحيوان. تكاد تكون نقطة انطلاق لحركة الحداثة التي حاولها المولدون وهي: «والقضية التي لا أحتشم منها ولا أهاب الخصومة فيها: أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب، أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى، والمولدة والنائية. وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه. ولقد رأيت ناساً منهم يبهرجون أشعار المولدين، ويسقطون من رواها، ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان كان»^(٤). وقد حظي النقد العربي القديم بمعطيات جديدة حركت في أذهان المبدعين من النقاد وعامة الناس مفهومات تتصل بالقديم والمحدث، وبالاختلاف بينهما، وانتصر فريق للقديم، وفريق للمحدث، ولا سيما في الشعر، وألف عدد غير قليل من النقاد مؤلفات في المحدث منها طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز.

كما شهد العصر العباسي في ميدان الإبداع الشري ألواناً مستحدثة من فنون النثر لم تكن معروفة من

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ج ١، ص ٤٥.

(٢) البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، ج ١، ص ٥١.

(٣) الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، ج ٢، ص ٢٧.

(٤) الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، ج ٣، ص ١٣٠.

قبل ، فتطورت فنون الكتابة والتأليف وأجناسهما تطوراً كبيراً ، ولعل الجاحظ يُعد من أهم أعلام الحداثة والتجديد في النثر الأدبي ، وقد ظهرت ملامح الحداثة في أدب الجاحظ وفق مستويات عديدة ، ويمكن اختصارها في مستويين :

المستوى الأول : الحداثة في الموضوعات. إذ كتب الجاحظ في موضوعات حديثة لم يألفها الفكر العربي سابقاً ، وقد أفاد الجاحظ في هذا من نشاط حركة الترجمة ومن علوم الفرس والهند واليونان ، فابتدع موضوعات جديدة للكتابة ، ولاسيما الرسائل ، والقصص. وأدخل فيها موضوعات تخص القيم والعادات والسجيا والطباع عند الإنسان والحيوان. وألف في البخل وفي الجنس... والجدل والأقوام.

المستوى الثاني : الحداثة في الأسلوب. إذ غير الجاحظ في بنية السرد الأدبي ، وقدم صياغات تعبيرية ، وأساليب أدبية ، وبنى سردية حديثة ، تميزت بخصائص معروفة منها ما يتصل بالسلامة والسهولة والطبع للابتعاد عن التكلف والصنعة والغموض والإغراب ، ومنها ما يتصل بالغزارة والتنوع والتلوين العقلي والصوتي ، ومنها ما فرضه واقع ميل الجاحظ إلى الجدل والاستطراد اللذين استدعيا أداء جديداً متميزاً في بنية المفردة «اللفظة» وبنية الجملة. وهذا ما دفعه إلى البحث في بنية التعبير وصلتها ببنية الطبقات الاجتماعية ، وله في هذا اجتهاد واضح أمل أن يتاح لنا البحث فيه في مستقبل الأيام. والجاحظ بهذه الأفكار يبدو كأنه يبنى أسساً رفيعة لعلم جديد لم يحدث له مثيل من قبل في الدراسات الإنسانية.

مظاهر الحداثة :

اختلفت مظاهر الحياة بكافة أطرافها في العصر الذي عاش فيه الجاحظ اختلافاً جذرياً عما كانت عليه في العهود السالفة ، وظهرت آفاق جديدة فسيحة من الحضارة والثقافة لم يكن للعرب عهد بها ، وإذا كان الأمويون قد بذلوا جهوداً مضنية في أن يبقى المجتمع عربياً بحثاً في لغته وتقاليده وأدبه ، فإن العباسيين لم يهتموا بهذا كثيراً ، ولم يسلكوا هذا المسلك ، وإنما فسحوا المجال أمام جميع الأعراق والأطياف والتيارات الفكرية ، إذن ليس بعسير علينا أن نتصور تلك الظروف الفكرية والنفسية التي نشأ فيها الجاحظ.

أ - الواقع الاجتماعي :

وإننا نجد الجاحظ المفكر البارز في نسق الحضارة العربية الإسلامية - إزاء ما طرأ على مظاهر المجتمع من تحسين وتجميل ، وتطوير وتفخيم - يتحمس للتغيير ، كما أن الأدب لا بد له أن يتغير ويتطور لأنه مرآة الحياة. والواقع أنه يُعد من الكتاب المسلمين الأوائل الذين أبدوا اهتماماً ملحوظاً بالمجتمع ، فقد استطاع بحدة ملاحظته ونزعة الإصلاحية التطويرية ، أن يرصد كافة مظاهر مجتمعه ، ولعل أبرز ما يصادفنا من هذه المظاهر انعكاس الواقع الاجتماعي في أدبه ، وأنه كان مرهف الإحساس ، شديد الوعي بمجتمعه وعصره .

كانت مؤلفاته تعكس الواقع الاجتماعي لعصره على نحو رائع، وكان يتخذ من قلمه شيئاً كريشة المصور، ينقل الوقائع كما يراها وكما يحسها، وهمه في ذلك أن يصور الشيء على حقيقته ويرسمه في واقعية ودقة حتى تكون كتاباته سجلاً صادقاً لهذه الحياة.

ومن يتابع أسلوب أبي عثمان يرى بوضوح أن لديه شغفاً كبيراً بحكاية الواقع، لا يسعى إلى المبالغة والابتعاد عن المعقول، ففي قصصه مثلاً يختار الأبطال من أناس من المخلوقات لا من مبتدعات الخيال، فهم مابين عالم أو قاضي أو تاجر، وإن من أدق وصفه الواقعي من غير تصنع ولا مداراة ما ذكره عن بخلاء عصره من أمثال: سهل بن هارون والكندي وابن غزوان والحراشي والحزامي وعلي الأسواري. ومن تلك الصور الرائعة التي افتن الجاحظ في إبرازها، صورة علي الأسواري وهو يقول «والله إني لو لم أترك مؤكلة الناس وإطعامهم إلا لسوء رعة علي الأسواري لتركته، وما ظنكم برجل نهش بضعة لحم لم تعرق فبلع ضرسه وهو لا يعلم؟ فعل ذلك عند إبراهيم بن الخطاب مولى سليمان. وكان إذا أكل ذهب عقله وجحظت عينه، وسكر وسدر وانبهز وتربد وجهه وعصب، ولم يسمع ولم يبصر، فلما رأيت ما يعتره وما يعترى الطعام، صرت لا أزن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقل، ولم يفاجئني قط وأنا أكل تمراً إلا استغه سفاً وحساه حسواً وذرا به ذرواً، ولا وجد كثيراً إلا تناول القصعة كجمجمة الثور ثم يأخذ بحضيتها ويقله من الأرض، ثم لا يزال ينهشها طويلاً وعرضاً ورفعاً وخفضاً حتى يأتي عليها جميعاً، ثم لا يقع عقبه إلا على الأنصاف والأثلاث، ولم يفصل ثمرة قط من ثمرة، وكان صاحب جمل، ولم يكن يرضى بالتفاريق، ولا رمى بنواة قط، ولا نزع قمعاً ولا نفى عنه قشراً، ولافتشه مخافة السوس والدود، ثم ما رأيته قط إلا وكأنه طالب ثأر، وشحشان صاحب طائلة، وكأنه عاشق مغتلم أو جائع مقرر»^(١).

لقد كان الجاحظ بارعاً في تصويره هذا ولعل السبب الرئيسي في ذلك الاعتماد على الخيال والحس والواقع، ولهذا اتسمت صوره بالحسية وكانت النزعة الحسية بالغة الأثر في مؤلفاته ولاسيما في كتاب البخلاء، في حال أن الكتاب قبله كانوا يلجؤون أحياناً إلى ضروب من التصوير الخيالي الذي يخفي وراءه الحقيقة. وهذا الاتجاه حديث في الأدب.

فنلاحظ في مؤلفاته عدداً كبيراً من الصور الحسية الواقعية، والتي تعتمد ما يشبه التشكيل الفني المعاصر في الرسم والنحت والتصوير، ولعل في تصويره لتزمت قاضي البصرة عبد الله بن سواد حين حط الذباب على أنفه ما يشبه إخراج العمل الدرامي في عصرنا، حيث يرسم بالكلمات المناسبة والجمل الموجزة حركات حية وانطباعات معنوية تغني عن الرواية البصرية للدراما السينمائية أو التلفزيونية المعاصرة، فكان الجاحظ مخرجاً

(١) البخلاء، عمرو بن بحر الجاحظ، ج ١، ص ١٤١ و ١٤٢، دار الكتب المصرية.

منفذاً بمفهوم اليوم.

ب- الصراحة:

وفي سبيل التعبير عن هذا الواقع الاجتماعي كان الجاحظ صريحاً منتهى الصراحة، فصرح بألفاظ لم يبح العرف الاجتماعي استعمالها، والذوق العام قد ينفر من استخدامها، إذ ذكر بذيء الألفاظ وما يتصل بهذا من شتم وقذف، ولا فرق لديه أن تكون موضوعات مؤلفة في علم الكلام، أو أخبار الملوك. ولكنه كان يرى أن ذلك منهم ليس إلا تعففاً مفتعلاً، وتوقراً لا أساس له وهو يقول في ذلك: «وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر... ارتدع وأظهر التقزز، واستعمل باب التورع وأكثر من تجده كذلك إنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم، والنبل والوقار، إلا بقدر هذا الشكل من التصنع. ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق، إلا عن لؤم مستعمل، ونذالة متمكنة»^(١).

لقد تأثر الجاحظ بنزعة الواقعية في استعمال هذه الألفاظ ومالا شك في أن هذا الاتجاه الذي عرف فيما بعد باسم الأدب المكشوف جديد في الأدب. ونرى ابن قتيبة يتبع هذه الطريقة إذ يستبيح ذكر العورات ووصف الفواحش دون أي تحرج ويحتج أيضاً بالأسلوب نفسه الذي احتج به الجاحظ لهذا الاتجاه^(٢). وكان الجاحظ هنا حدثاً بكل معنى الكلمة، فلم يتحرج من الاستطراء في وصف العورات وسفاسف القيم، وآية ذلك رسالته في «المفاخرة بين الجواري والغلمان».

ج- اللغة التطبيقية:

ومن مظاهر الحداثة لدى الجاحظ استعمال اللغة استعمالاً طبقياً حسب تعبير الدكتور عبد الطيف عمران في كتابه «المرجع في النثر الأدبي»، فكما أن الناس طبقات فإن تعابيرهم في طبقات^(٣) إنه يسعى جاهداً في اختيار ألفاظ دقيقة معبرة تلائم ما يصفه أو يصوره، حتى إنه ليحكي كلام المولدين والعوام بما فيه من لحن وخطأ لينقل إلينا الواقع بكل ما فيه، وهو يقول: «وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب أو لفظاً معدولاً عن جهته فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب ببعض هذا الباب يخرج من حده، إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعالي البخل وأشقاء العلماء كسهل بن هارون وأشباهه^(٤)». فلكل شخصية ألفاظها وتعابيرها المطابقة لما هي عليه في الحياة، فإذا كان البخل متكلماً، فإنه يتحدث بكلام المتكلمين وإذا كان قاضياً فإنه يستعمل التعابير الفقهية، وفي كتاب البخلاء وردت كلمات فارسية مثل: «وتبنكت

(١) الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، ج٣، ص ٤٠.

(٢) مقدمة عيون الأخبار، ص ل.

(٣) المرجع في النثر الأدبي في العصر العباسي، ص ٣١١.

(٤) البخلاء، عمرو بن بحر الجاحظ، ج١، ص ٧٨.

خاتون»^(١) الذي يرد على لسان شخصية فارسية على الأرجح. ولعل هذا الاتجاه عند الجاحظ مستمد من مذهبه الواقعي في الفن، فهو لشدة ارتباطه بواقع الحياة اليومية العامة، ولحرصه الفني على أن يأتي أدبه معبراً عن دقائق هذه الحياة بألوانها الأساسية الحية المتحركة، يتجه نحو الالتصاق بالحدث الراهن، في لحظة زمن الرواية والرؤية، فلا ينأى بفكره وبأسلوبه عن معطيات الحادثة في الرؤية، وفي الفكر، وفي التعبير.

وما أجمل كلام الدكتور عبد السلام المسدي حين أوضح مهمة اللغة بقوله: «إننا لا نستطيع إبراز ما نفكر فيه، وما نسميه إلا بواسطة أدوات تعبيرية يفهمها عنا الآخرون، وقد تكون الفكر ذاتية ولكن الرموز المستعملة في أدائها تبقى مشتركة بين مجموعة بشرية مخصوصة». وفي كتاب البخلاء نراه يحاول الجمع بين شخصية المكدي وشخصية القاص في وقت واحد وهو خالد بن يزيد^(٢) وخالويه المكدي، لكي يعطي صورة واقعية لعصره، وليبرز شخصية القاص على حقيقتها.

د. المذهب الكلامي وبساطة التعبير:

وكان من أبرز مظاهر الحادثة لدى الجاحظ هو التعبير عن النظريات العلمية والآراء الكلامية المعقدة والجافة بأسلوب أدبي جميل يتسم بالبساطة والسهولة، لا يشعر القارئ أثناء قراءته لهذه النصوص بأي نوع من الصعوبة والمشقة، وإنما يرى كاتبها قادراً على التعبير عن القضايا الدينية والاجتماعية والفكرية وغيرها بأسلوب سهل واسع، جعلها في متناول الأفهام. وهذا يعبر عن النزعة الفنية الخاصة عند الجاحظ. وهما هو يقوم بمعالجة قضية من القضايا الكلامية الغامضة في موضوع الكون وعنصري الخير والشر، فلا يكاد يشعر بك بشيء من التعقيد أو الجفاء اللذين هما من طبيعة البحوث الفلسفية، ومثال ذلك حديثه في كتاب الحيوان عن النحل والنمل، والكلاب، وخاصة: جودة الشم عند الكلاب السلوقية، وهو يقول: «اعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها، امتزاج الخير بالشر، والضار بالنافع، والمكروه بالسار، والضعفة بالرفعة، والكثرة بالقلة، ولو كان الشر صرفاً هلك الخلق، أو كان الخير محضاً سقطت المحنة، وتقطعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة، ومتى ذهب التغيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبت وتوقف وتعلم. ولم يكن علم، ولا يعرف باب التبيين، ولا دفع مضرة، ولا اجتلاب منفعة، ولا صبراً على مكروه، ولا شكراً على محبوب، ولا تفاضل في بيان، ولا تنافس في درجة، وبطلت فرحة الظفر، وعز الغلبة، ولم يكن على ظهرها مُحِقٌّ يجد عز الحق، ومبطل يجد ذل الباطل، وموقن يجد برد

(١) البخلاء، عمرو بن بحر الجاحظ، ج ١، ص ٩٠.

(٢) النقد والحادثة، الدكتور عبد السلام المسدي، ص ٤٤.

اليقين، وشاك يجد نغص الحيرة وكرب الوجوم، ولم تكن للنفوس آمال، ولم تشعبها الأطماع، ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف كيف اليأس، ومن جهل اليأس، جهل الأمن، وعادت الحال من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء، إلى حال السبع والبهيمة، وإلى (حال) الغباوة والبلادة، وإلى حال النجوم في السخرة، فإنها أنقص من حال البهائم في الرتبة^(١)، فهو يعطينا فكرته في غاية الدقة والجمال، كما يعطينا قمة الفن الأدبي في روعته وسحره. ولا ينبغي أن تفارقنا الإشارة إلى أن الجاحظ من أصحاب الجدل قبل كل شيء، فتحدث عن مدح الشيء وعن ذمه. وفي الوقت نفسه، كتب رسالة في فضل السودان على البيضان، وتكلم عن إمامة علي بن أبي طالب، كما تكلم عن صحة ولاية معاوية، وكتب في ذم أخلاق الكتاب، كما كتب في مدحهم، وهكذا يحتج للشيء وضده، ويدور بالكلام بين المعنى ونقيضه. وهذه المقدرة لدى الجاحظ إن دلَّت على شيء فإنما تدل على مدى تمتعه بعقلية ممتازة، مكنته من أن يذهب بالكلام كل مذهب، ويدور به كل مدار.

ومن هنا نرى ابن المعتز حين التفت إلى أساليب العرب في الكلام على أساس البديع، وجد أن بديع الجاحظ ومبتدعه هو المذهب الكلامي^(٢) بما يتطلبه هذا المذهب في الكلام من طباق ومقابلة وجدل وأدلة وبراهين ومقدمات ونتائج، وهذا ما كان الجاحظ مولعاً به لا يستطيع تفاديه، ونحن إذا استعرضنا ما دار بينه وبين الطبيب يوحنا بن ماسويه على مائدة بعض الوزراء فسنعرف إلى أي حد كان عميق التفكير، قوي التعليل والتحليل، وأنه لم يكن يُقر رأي الطبيب إلا إذا اقتنع بأنه كان على المائدة أشكال عديدة من الطعام منها السمك واللبن، وامتنع الطبيب من الجمع بينهما في الأكل، فراح الجاحظ يفلسف الموضوع ويستدل بالمنطق منتصراً لرغبته في تناولهما معاً: «لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له، فإن كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له، وإن كانا من طبع واحد، فلنحسب أنا قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا، فقال يوحنا: والله مالي خبرة بالكلام، ولكن كلُّ يا أبا عثمان وانظر ما يكون في غدٍ، فأكل الجاحظ انتصاراً لدعواه، ففلج في ليلته، فقال: «هذه والله نتيجة لقياس المحال»^(٣).

وفي الصورة التي رسمها لأحد أصحابه وهو «ثمامة بن جعفر» بطريقة حوارية جدلية نرى بوضوح افتتان الجاحظ أيما افتتان في هذا المضمار^(٤). وهذا دليل آخر على النزعة الفلسفية والجدلية في فكره ومؤلفاته،

(١) الحيوان، عمر بن بحر الجاحظ، ج ١، ص ٢٠٤.

(٢) البديع، عبد الله بن المعتز، ص ٥٣.

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة ج ١، ص ١٨١.

(٤) البخلاء، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق الحاجري، ص ١٠٤.

وكأنما أكسبته ثقافته اليونانية والفارسية ، وانضمامه إلى المعتزلة ، أن يواجه الحياة كلها بعقله ، وأن يقف منها موقف العالم المحقق.

وقد تعرض الجاحظ لانتقادات لاذعة من قبل عدد من الكتاب والنقاد ، وفي رأسهم ابن قتيبة في كتابه «تأويل مختلف الحديث» فاتهمه بالكذب والوضع ومناصرة الباطل على الرغم من بصره بالحق.

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو : ما السبب الرئيسي الذي وجهه هذا التوجيه ؟ للإجابة على هذا السؤال يمكن القول : إن البيئة التي نشأ فيها الجاحظ كانت بيئة اعتزالية تمجد العقل وتكرم البرهان والدليل والجدل ، وتلك بيئة خصبة لتمرين العقل على الحجاج والمناظرة ، فكان لها التأثير الجلي على عقلية الجاحظ وتفكيره ، وهذه البيئة مخالفة في أشكالها ومضموناتها لبيئة ابن قتيبة .

هـ- التنويع والتلوين والابتعاد عن المنهجية:

يُعد التنويع والتلوين في البنية والمضمون من أهم منجزات الحداثة لدى الجاحظ ، إنهما ظاهرتان من الظواهر التي يتسم بها أسلوبه ، وسمة من سماته الخاصة ، لم نرها على الإطلاق في الكتابة العربية قبل الجاحظ ، والقارئ لمؤلفاته يدرك بوضوح انتقاله من موضوع إلى موضوع وخروجه من فكر إلى فكر ، ومن أسلوب إلى أسلوب ، ومن طبقة ونبرة في الكلام إلى طبقة ونبرة مغايرتين ، وقد نلاحظ هذا في النص الواحد أو الصفحة الواحدة ، فبينما هو يتكلم في الاعتزال إذا به يتركه فجأة ليسرد قصة ، ثم لا يكاد ينتهي من ذلك حتى يتحدث عن البلاغة ، ثم يردف ذلك بالتكلم عن الحيوان وصنوفه ، وأكثر ما نشاهد هذا في كتابي الحيوان والبيان والتبيين وكذلك في رسائله ، وربما خشيته على قارئه من السآمة والملل هو السبب الأساس وراء هذا التنويع. وقد صرح الجاحظ نفسه بهذا وهو يقول : قد عزمت والله الموفق أن أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ، ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ؛ فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة ، وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة ، كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح^(١). إضافة إلى ذلك هناك سبب آخر يكاد يكون رئيسياً وهو غزارة معارفه ، وسبق أن قلنا أنه من الصعب تحديد وحصر الموضوعات التي اتخذها الجاحظ مادة لنشره. وقد كان مهتماً بحقول الفكر على مستوى الموضوعات ، وعلى مستوى تعدد المشارب ، وهو في هذا يحاكي مظاهر التنوع والغنى والغزارة في الثقافة العربية الإسلامية ، ولاسيما في عصرها الذهبي ،

(١) الحيوان ، عمرو بن بحر الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٧ .

فإذا هو قرر الكتابة، تدفق على قلمه بحر من المعاني والكلمات، وهو بهذا السرد يقول: «ولولا أنني أتكلم على أنك لا تمل باب القول في البعير حتى تخرج إلى الفيل.. لرأيت أن جملة الكتاب وإن كثر عدد ورقه، أن ذلك ليس مما يميل ويعتد عليّ فيه بالإطالة؛ لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة، وكل مصحف منها فهو أم على حدة، فإن أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني، ولا الثاني حتى يهجم على الثالث فهو أبداً مستفيد ومستطرف، وبعضه يكون جماماً لبعض ولا يزال نشاطه زائداً. ومتى خرج من أي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى النوادر، ومن النادر إلى حكم عقلية ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب، ولعله أن يكون أثقل والمال إليه أسرع، حتى يفضي به إلى مزح وفكاهة وإلى سخف وخرافة، ولست أراه سخفاً إذ كنت إنما استعملت سيرة الحكماء وآداب العلماء»^(١).

وقد أكثر الجاحظ من التنوع والتلوين في مؤلفاته على نحو اقترن بالريادة والابتداع، إذ لا سابق له، ولا نظير في زمنه، فقد تأخر زمن ظهور تلامذته حتى أواخر القرن الرابع للهجرة على نحو ما نلاحظ عند ابن العميد والتوحيدي والمعري من حيث غزارة المعرفة، وربما كان الأمر في كتاب «البيان والتبيين» أكثر خروجاً عن إرادة الجاحظ مما هو عليه في المؤلفات الأخرى، وكما قلنا: إنه لم يكن يعبث بهذا التنوع أو يقع فيه عفواً وعن غير قصد، بل إنه كان يأتيه قصداً، ودليلاً في ذلك تسليية القارئ وتنشيطه. قد يكون سبب ثالث في هذه الظاهرة يتصل بأن تلك المؤلفات الموسوعية الطابع ألقت في مرحلة ضعف المؤلف وشيخوخته جسدياً، بما لم يؤثر على نشاط ذهنه، وملكاته العقلية، فكان يعتمد على وراق يملئ عليه، وهذا الإملاء هو من أسباب الاسترسال والمضي قدماً مع الذاكرة الفياضة الغنية التي ترك لها المؤلف حرية الجولان في مخزون ضخمة وفي آفاق رحبة.

وقد تأثر التنوخي بالجاحظ في هذا المجال تأثراً واضحاً، والذي يرجع إلى كتاب «نشوار المحاضرة» الذي ألفه التنوخي يلاحظ أنه قد حاول أن يسلك مسلك الجاحظ في التنوع والتلوين. وقد أشار الدكتور زكي مبارك إلى هذا قائلاً: «والمؤلف في الجملة يسلك مسلك الاستطراد؛ فينتقل بالقارئ من قصة إلى قصة ومن حديث إلى حديث بلا ترتيب ولا تبويب، وقد صنع هذا الصنيع غير واحد ممن تقدموه وعاصروه وخلفوه، وهو منهج له قيمته في تشويق القارئ، ونقله من حال إلى حال بين الجد والهزل، والحلو والمر، والقديم والطريف»^(٢).

(١) الحيوان، عمر بن بحر الجاحظ، ج ١، ص ٩٣ - ٩٤.

(٢) النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، ج ١، ص ٣٢٣.

- ثنائية المضمون والصياغة :

ولعل أول ظاهرة اهتم بها التجديد الأدبي في العصر العباسي هي العناية بالمعاني أكثر من العناية بالألفاظ والأساليب البيانية في زمن الجاحظ ، فقد أتى زمن بعد قرنين تحققت فيه العناية بالألفاظ على حساب المعاني على نحو ما نجد في فن المقامات ، لأن الحاضرة العباسية الجديدة اختلفت كثيراً عن حياة الأجيال السابقة ، ففرضت مثلاً جديداً ونماذج فكر متطورة ، إذ لم يعد الأسلوب القديم قادراً على التعبير عن حاجات المجتمع الجديد الذي دهمته الحضارات الجديدة المجاورة الفارسية والرومانية واليونانية. وهذا الامتزاج الحضاري في الحاضرة العباسية الجديدة أخذ يولد حركة ضاغطة نحو التحديث يقول الدكتور مصطفى هدار «تصطدم في عنف بعمود الشعر القديم ومنهجه وقوابله. ومما أعان على وجود هذه الحركة ظهور طبقة جديدة في المجتمع من ناحية جنسها، إذ كانت مزاجاً بين العرب وبين الأجناس الأخرى التي أخضعها المسلمون في فتوحاتهم. وهذه الطبقة الجديدة المولدة كانت لها خصائص نفسية وطرائق تفكير تختلف بطبيعة الحال عن العرب الخُلص الذين كانوا يحملون لواء الشعر حتى نهاية القرن الأول تقريباً دون أن ينازعهم فيه منازع. أما في بداية القرن الثاني فقد ظهر هؤلاء الشعراء المولدون الذين يحسنون العربية إلى حد البراعة ، كما يحسنون في معظم الأحيان لغتهم الأخرى التي أتتهم من جهة أمهاتهم في الغالب ، فكانت ثقافة اللغتين تمتزج في نفوسهم امتزاجاً قوياً فتولد عن هذا الامتزاج روح جديدة لا تنظر إلى التراث الشعري القديم نظرة التقديس والرهبنة التي كان العربي الأصيل يقفها منه»^(١). وهذا التجديد في فنون الشعر ، كان مواكباً للتجديد في فنون النثر ، ما أثر في أذواق الجمهور ، وطباع المتلقين.

وقد اهتم الكتاب قبل الجاحظ اهتماماً ملحوظاً بالجانب الشكلي للكلمة فحاولوا الإبداع في اختيارها وصوغها ، ولا أدل على هذا التأنيق في صوغ الكلمات واختيارها من أن عبد الله بن المقفع كان كثيراً ما يتوقف عن الكتابة إذا كتب ، فقليل له في ذلك ، فقال : «إن الكلام يزدهم في صدري فأقف لتخيره»^(٢).

كما اهتم النقاد بها ، ووجهوا إليها عنايتهم. يقول أناتول فرانس «Anatol France» وهو يتحدث عن الأسلوب عند لافونتين : كان لافونتين مولعاً بالكلمات ، ويعرف كيف ينتخبها ولا يكون المرء كاتباً إلا إذا أحسن اختياره للألفاظ ، فالكلمات هي أفكار ، ولا سبيل إلى الإصابة في الحكم إلا بالتمكن من النحو والمفردات الصحيحة وأظن أن الأمة الأولى في العالم ، إنما هي الأمة التي تملك أحسن الأصول في النحو وتنسيق اللفظ ، وقد يقع في أغلب الحالات أن الرجال يتناحرون بسبب كلمات لا يدركون معانيها ، ولو

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، الدكتور محمد مصطفى هدار ص ١٤٨ .

(٢) أمراء البيان ، محمد كرد علي ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .

فهم بعضهم كلام بعض لتعانقوا، ولا شيء يعمل على رقي العقل البشري مثل معجم يضيء ظلمة كل شيء^(١). ويمكن الإفادة من معطيات حركة النقد الأدبي المعاصر في الغرب لإعادة النظر في أسلوب الجاحظ، وآمل أن يسمح لي الوقت في يوم من الأيام بالانصراف إلى هذا الأمر ولا سيما الإفادة من حركة النقد الجديد في الغرب وخاصة الشكلائية.

وكذلك اهتموا بأن يلائموا بين جملهم، ويوفروا لها ضرورياً من التعادل الصوتي يتمثل أحياناً في التوازن، وأحياناً في السجع أو الازدواج، لأن الجملة كالكلمة في ذاتها، لا يدرك جمالها إلا إذا انضمت إلى غيرها. وكذلك المعاني قد اتسعت وتنوعت عما كانت عليه من قبل، لأن الحياة في هذا العصر أصبحت مفتوحة ومتنوعة، ونحن نشاهد مظاهر هذه الحياة في نثر ابن المقفع وسهل بن هارون. لقد وجه الجاحظ عناية بالغة بموضوعي المضمون والشكل فحاول معالجتهما في ضوء رؤية علمية جديدة، وهو يتوقف عند الأمور التالية بهذا الخصوص:

١ - التلاؤم بين اللفظ والمعنى:

تكاد تكون المناسبة بين اللفظ والمعنى من أهم الأسس التي تتوقف عليها بلاغة الكلام، فلكل كلمة إيجاء بمعنى محدد لا تنسجم إلا معه، كما أن لكل معنى إيجاء بكلمة محددة لا يحسن أدائه إلا بها، فالأديب البارع والكاتب القدير هو الذي يستطيع الاستجابة لهذه الإيجاءات. وقد احتل هذا الموضوع مكانة واسعة في كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ. فهو أول من دعم هذه الفكرة في النثر العربي، ولا أدل على هذا من أنه جعل اختيار الكلمات والمناسبة بينها وبين معانيها مذهباً من أهم مذاهبه في بلاغة الكلام: «ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال، وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك مله، وداخل في باب المزاح والطرف، فاستعملت فيه الإعراب انقلب عن جهته وإن كان في لفظه سخف، وأبدلت السخافة بالجزالة، صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكرها ويأخذ بأكظامها»^(٢). والجاحظ في اهتمامه بالمعنى، يصدر عن فكر معتزلي، ابتدع بطبع وهدوء وروية الأساليب المناسبة لتنوع المعاني وغزارة الأفكار.

فالجاحظ خبير بعلم اللغة وأسرارها ودقائقها، إنه يعرف جيداً كيف يعطي المعنى للكلمة التي يوحى

(١) الجاحظ معلم العقل والأدب، شفيق جبيري، ص ٢٦٢.

(٢) الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، ج ٣، ص ٣٩.

بها، ومن هذا المنطلق ينصح الكاتب أن يأخذ الصلة الطبيعية بين الألفاظ ومعانيها على محمل الجد، فلا يُعطي السخيف للخفيف، ولا يضع الكناية موضع الإفصاح وإلا فإن الكلام سيفقد رونقه ويتحول عن جهته. وإصراراً منه على تأصيل هذه الفكرة والدعوى إليها كلما سنحت الفرصة يذكر في كتابه «البيان والتبيين»: ومتى شاكل - أبقاك الله - ذلك اللفظ معناه، وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وفقاً، ولذلك القدر لفقاً، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قميناً بحسن الموقع وبانتفاع المستمع وأجدر أن يمنع جانبه من تناول الطاعنين، ويحمي عرضه من اعتراض العيابين، ولا تزال القلوب به معمورة والصدور مأهولة»^(١).

ولسنا بحاجة إلى أن نستطرد في سرد أقوال الجاحظ التي يقرر فيها فكرته في المناسبة بين الألفاظ والمعاني فهي موجودة بكثرة في مؤلفاته كلها، والذي يعيننا هنا هو أن اللفظ والمعنى عنصران مقترنان من عناصر النص الأدبي، ومتى اقترن اللفظ السليم والأسلوب مع المعنى الحسن ورقة العاطفة، فقد أصبح النص الأدبي إبداعاً، وبعد عن الصنعة والتكلف، وأدينا الجاحظ هو الذي نجح في هذا الأمر وافتن أياً افتنان، وتمكّن من خلق نوع من الموازنة بين هذين العنصرين والربط بينهما.

وإذا سلمنا بأن الحداثة في مضمون الأدب تعني سعي الأديب إلى معالجة الأغراض الفنية التي تحرره من تبعية التواتر المألوف، والحداثة في الصياغة تُعرّف بمدى قدرة الأديب على ابتكار أسلوبه الأدبي مما لا يتقيد بأنماط سائدة ولا معايير مطردة، حسب تعبير الدكتور عبد السلام المسدي في كتابه «النقد والحداثة»^(٢)، فالجاحظ نجح في ذلك كل النجاح. ولعل أبرز ما يصادفنا من مظاهر الحداثة في مجال المضمون هو غزارة المعاني ودقّتها وتنوعها التي لم نرها من قبل بين الكتاب والأدباء الذين سبقوا الجاحظ. فهو حينما يتحدث إليك في موضوع ما، لا يدعك تفتّر لحظة عن التأمل لكثرة معانيه وتنوعها. إليك مثلاً رسالة «التربيع والتدوير» التي كتبها في السخرية يحشد فيها الجاحظ أمام القارئ حشداً من الأسئلة العديدة المتنوعة، يتحدّى خلالها ابن عبد الوهاب؛ ولا نظن أن أحداً قد جرى الجاحظ فيها، وهو يقول في الرسالة: خبرني ما السحر والطلسم؟ ... ، خبرني أين كان اقليدس من فيثاغورس؟ وأين تلامذة هذا من تلامذة ذاك؟ ومن صاحب الشطرنج؟ ومن صاحب كيلة ودمنة؟.

«وزعم بعض تلامذتك أنك تعلم لم كان الفرس لاطحال لها، ولم صار البعير لا مرارة له، ولم كانت

(١) البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، ج ٢، ص ٧.

(٢) النقد والحداثة، الدكتور عبد السلام المسدي، ص ١٣.

السمة لا رئة لها .. ولم قيل : أعق من ضب». فهذا السياق من أسلوب الاستفهام الإنكاري المتتابع يأتي في سياق وظيفة معرفية يريد الجاحظ أن يتحدى بها معاصريه. وكما أشرنا سابقاً يعتمد أبو عثمان في تصويره على المعاني المحسوسة الظاهرة التي تحيط بأطراف الفكرة، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على نزعة الواقعية.

وأما في إطار الشكل واللفظ - فمعلوم أنه - مرت بنا حقبة من الزمن كانت العناية بالمحسنات اللفظية فيها محل اهتمام معظم كتّاب الأدب العربي، فالجاحظ لكونه الرائد للحركة النثرية الجديدة اهتم باللفظ اهتماماً بالغاً بعيداً عن التكلف والزخرف، ليتدع أسلوباً مميّزاً هو السهل الممتنع، ورأى أن من أصول إنتاج الخطاب البليغ، إجادة الخطيب أو البليغ عموماً اختيار ألفاظه وهو يقول: «متى كان اللفظ كريماً في نفسه، متخيراً من جنسه، وكان سليماً من الفضول، بريئاً من التعقيد، حُبب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخف على ألسن الرواة وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره، وصار ذلك مادة للعالم الرئيسي ورياضة للمتعلم الرّيس»^(١). ثم يؤكد تأكيداً تاماً على أن الخطيب يجب عليه مراعاة عدة أمور عند اختيار ألفاظه ومن بينها وأهمها: «مجانبة الغريب الوحشي والمبتذل السوقي بقوله: «كما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً، وساقطاً سوقياً، فذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً، إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي، وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات»^(٢). كما عليه أن يختار ألفاظاً واضحة الدلالة على المعنى فيقول: «على قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله ﷻ يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه، بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم»^(٣). ويعتقد أن لكل مقام مقالاً وعلى الخطيب أن يراعي أحوال السامعين وطبقاتهم، وما ينبغي أن يُخاطبوا به، فلا ينبغي أن يكلم العامة بكلام الخاصة، وذلك العكس وهو يقول: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازي بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار

(١) البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، ج ٤، ص ٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ج ١ ص ١٤٤.

(٣) البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، ج ١، ص ٧٥.

المستمعين على أقدار تلك الحالات»^(١).

وبهذا قد أسس الجاحظ مذهبه النقدي التعبيري، وانتصر لخصائص أسلوبه وكثرت أبحاثه في الكتابة والكتاب على أساس من البيان الذي يحتاج معه الكاتب إلى رسالة يكون لعمل العقل فيها نصيب من تميز وسياسة وترتيب ورياضة، وبما يقتزن بالحلاوة والطلاوة اللتين مصدرهما الطبع السمع أولاً، وليس التكلف الذي يكد ذهن المرسل والمتلقي والرسالة في كثير من الأحيان.

٢- المفاضلة بين اللفظ والمعنى :

لقد شهدت الساحة الفكرية والثقافية العربية الإسلامية نقاشاً حاداً بين النقاد في المفاضلة بين هذين العنصرين أيهما أكثر إبداعاً وأبرزها جمالاً في تركيب الجمل، ونحن لسنا بعيدين عن جادة الصواب إذا اعتبرنا اهتمام الأديب بالمضمون والمحتوى وابتعاده عن العبودية للشكل والأسلوب شرطاً أساسياً لتحقيق الحداثة. ومن هنا انصرف الجاحظ عن الإغراق في القضايا النظرية الخلافية في النقد الأدبي، وبادر إلى ابتداء نصوص مناسبة لرؤيته النقدية. إذا نظرنا إلى كتابين مهمين من أمهات مصادر الكتب بالمكتبة العربية وهما: «الشعر والشعراء» لابن قتيبة و«أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجاني وجدنا الكثير من هذه النقاشات التي دارت بين النقاد الأوائل حول هذا الموضوع، واستولت هذه الظاهرة على الأدب ردحاً من الزمن.

- الاستجابة النقدية للحداثة :

لا شك في أن مؤرخي النقد الأدبي العربي الحديث يفسحون مكاناً كبيراً لآراء الجاحظ النقدية، فهو من كبار النقاد العرب ويكاد لا يخلو كتاب في النشر النقدي القديم من إشارة إليه. ولسنا بعيدين عن الصواب إذا قلنا إن الجاحظ هو من أهم مؤسسي النقد الأدبي القديم. وقد أجمع النقاد والباحثون على أن كتاب البخلاء للجاحظ من أهم مؤلفاته على الإطلاق في النقد الاجتماعي. فهو يحاول معالجة ظاهرة من ظواهر مجتمعه في هذا الكتاب تقترب غالباً برغبة تكديس المال وهي ظاهرة البخل، والجاحظ نفسه في كتابيه «البخلاء والمحاسن والأضداد» يشير إلى من تناول موضوع البخل والبخلاء أمثال الأصمعي وأبي الحسن المدائني وسهل بن هارون وعبد الرحمن الثوري، وكانت طريقة الذين سبقوا الجاحظ في معالجة البخل والبخلاء تتخذ طابعاً روائياً بحتاً.

ونحن على ثقة أن الأدب العربي قبل الجاحظ لم يكن يتجه إلى حياة الناس الاجتماعية بمختلف أطيافهم

(١) المصدر نفسه، ج ١ ص ١٣٨ .

وبيئاتهم ومستوياتهم كما فعل الجاحظ ، إنه أغنى فن النثر العربي بأن جعله يشتمل على موضوعات جديدة كانت حتى الآن بعيدة نسبياً عن نطاقه ، تلك القصص التي كتبها عن البخلاء وطرائقهم في البخل والأسباب التي حدثتهم إلى اتخاذ حلية لهم ميزتهم عن غيرهم من أفراد المجتمع ، ويعد الجاحظ أول من لفت الأذهان إلى هذا النوع من القصص التي تتصل بأدق خلجات النفس ، وحركات الضمير. ولعل من أهم الدوافع التي دفعت لدراسة هذا الموضوع الإنساني العام اهتمامه بأمر المجتمع. فكان المجتمع بكل جوانبه السياسية والاقتصادية والثقافية والأدبية محل اهتمام الجاحظ وموضع نقده ، ويتجلى ذلك في العديد من كتبه ورسائل مثل : كتاب «العرب والموالي» ، كتاب «التبصر بالتجارة» ، كتاب «اللصوص» ، رسالة «في وصف العوام» ، رسالة «في مدح التجار وذم عمل السلطان» رسالة في المغنين».

لم يكتف الجاحظ بمعالجة القضايا الأساسية والمصيرية للمجتمع بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فعرض للشؤون العامة وما فيها من غريب ومستقبح ، إنه من بين كتاب قليلين عبروا عن اهتمامهم بهذه الشؤون وكان مهتماً بأن يعالجها من جميع الزوايا ، كما كان مهتماً بأن ينقد حياة العامة لإصلاحها من جهة ، ولدفع الضيم عنهم من جهة أخرى.

وهكذا فإن الجاحظ من حيث أنه ناقد للمجتمع ومبتدع للأفكار ولأساليب نراه يقف ضد الجمود والثبات ، ويؤمن بالتحول والتجديد والتغيير من حالة إلى أخرى ، إنه كان قادراً على فهم حاجات الحضارة المعاصرة لمجتمعه ورغبات الناس وميولهم ، وقد نجح في أن يسبر غور التراث الفكري الإنساني لبناء أسلوب جديد يطور الأدب ، ويصلح الحياة ، وهذه هي الحداثة الحقيقية ، وإذا لم تكن الحداثة حقيقية بل كانت أقرب إلى تمرد غير جاد ، أو «إغراق في اللحظة الراهنة» ، لا بحث عن مستقبل» حسب تعبير الدكتور كمال أبو ديب^(١) فلن تؤدي إلى نتيجة تذكر ، لذلك نجد الحداثة عند الجاحظ قد أدت إلى نتائج واضحة ما تزال تشغل الناس حتى يومنا هذا.

(١) مجلة فصول ، الحداثة ، السلطة ، النص ، الدكتور كمال أبو ديب المجلد الرابع ، العدد الثالث ص ٤٢ ، القاهرة ، إبريل ١٩٨٤ .

الملخص :

يعد هذا البحث دراسة تحليلية عن الحداثة في الأدب والنقد لدى أبي عثمان الجاحظ ونظرتة إلى الحداثة التي ينبغي أن تكون على وجه صحيح ومثال سليم، وقد حاولت من خلاله كشف النقاب عن الخطوط العريضة لنظرية الجاحظ في الحداثة ورتبت بحثي هذا كما يلي :

- مقدمة عامة تحوي تعريفاً بالجاحظ وبيعض جهوده في خدمة العلم والأدب.

- التعريف بالحداثة.

- كلام عن مظاهر الحداثة.

- آراء الجاحظ في ثنائية المضمون والصياغة.

- تأثير الأدب المعاصر بحداثة الجاحظ.

المصادر والمراجع:

- ١ - اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: الدكتور محمد مصطفى هدارة، دار المعارف بمصر، ط ٢، ١٩٦٩.
- ٢ - أمراء البيان: محمد كرد علي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٧.
- ٣ - البخلاء: عمرو بن بحر الجاحظ:
- آ - تحقيق أحمد العوامري بك، علي الجارم بك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩١.
- ب - تحقيق طه الحاجري - دار المعارف، ط ٢.
- ٤ - البديع: عبد الله ابن المعتز، تحقيق المستشرق أغناطيوس كراتشكوفسكي، منشورات دار الحكمة، دمشق.
- ٥ - البيان والتبين: عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الحلبي، القاهرة.
- ٦ - تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري: الدكتور نجيب البهيتي.
- ٧ - الجاحظ: خليل مرد بك، مكتبة عرفة، دمشق، ١٩٣٠.
- ٨ - الجاحظ معلم العقل والأدب: شفيق جبري.
- ٩ - جمع الجواهر في الملح والنوادر: أبو إسحاق الحصري القيرواني، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٥٣.
- ١٠ - الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت ١٩٩٦ م.
- ١١ - الشعر والشعراء: ابن قتيبة.
- ١٢ - عيون الأخبار: ابن قتيبة، القاهرة، مطبعة: دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م.
- ١٣ - مجلة الفصول: المجلد الرابع العدد الثالث، القاهرة، أبريل ١٩٨٤.
- ١٤ - المرجع في النثر الأدبي في العصر العباسي: الدكتور عبد اللطيف عمران، منشورات جامعة دمشق ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦.
- ١٥ - المعجم الأدبي: الدكتور جبور عبد النور، دار العلم للملايين ط ١ / ١٩٧٩.
- ١٦ - الموشح: المرزباني، تحقيق علي محمد البجاوي، نشر دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٥.
- ١٧ - النثر الفني في القرن الرابع: الدكتور زكي مبارك، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- ١٨ - النقد والحداثة: الدكتور عبد السلام المسدي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٨٣.